مجلة المختار للعلوم الإنسانية 29 (1): 504-523، 2018

Research Article Open Access

مرحلة الاكتشاف والترقب في العلاقات الفرنسية – السنوسية

محمد محمود محمد عبيد الله

Doi: https://doi.org/10.54172/77ne7q79

المستخلص : تتناول هذه الدراسة العلاقات الفرنسية–السنوسية في مرحلتي الاكتشاف والترقب (1840–1902)، وتركز على الجوانب التاريخية والسياسية لتلك الفترة. يتمحور التركيز على التأثير الفرنسي والبريطاني في استكشاف السنوسية ودراسة طبيعة علاقتها بالاحتلال الفرنسي في الجزائر. تُسلط الدراسة الضوء على التقارير والمراسلات الفرنسية والبريطانية التي تناولت السنوسية وقادتها، وتحليل دور الشائعات والمصالح الاقتصادية في تأجيج الصراع بين الفرنسيين والسنوسيين في وسط أفريقيا. يهدف البحث إلى تسليط الضوء على أهمية فترة الاكتشاف والترقب للعلاقات الفرنسية–السنوسية، وتوضيح موقف السنوسية من المقاومة الجزائرية وتأثير التدخل الأجنبي على الحركة السنوسية. تعتمد الدراسة على مصادر تاريخية وتحليل متعدد الجوانب للتوثيق والتفسير الدقيق للأحداث والتطورات في هذه الفترة المهمة من العلاقات الفرنسية–السنوسية.

الكلمات المفتاحية: العلاقات الفرنسية–السنوسية، التدخل الأجنبي، الصراع المسلح.

The Stage of Exploration and Anticipation in French-Sanusi Relations

Mohammed Mahmoud Mohammed Obeid Allah

Abstract: This study examines the French-Sanusi relations during the stages of exploration and anticipation (1840-1902), focusing on the historical and political aspects of that period. The study revolves around the French and British influence in exploring the Sanusi movement and studying its relationship with the French occupation of Algeria. The study sheds light on French and British reports and correspondences that addressed the Sanusi movement and its leaders, analyzing the role of rumors and economic interests in fueling the conflict between the French and the Sanusi in Central Africa. The research aims to highlight the importance of the exploration and anticipation period for the French-Sanusi relations, clarifying the Sanusi position towards the Algerian resistance and the impact of foreign intervention on the Sanusi movement. The study relies on historical sources and a multidimensional analysis to provide accurate documentation and interpretation of the events and developments in this significant period of French-Sanusi relations.

Keywords: French-Sanusi relations, foreign intervention, armed conflict.

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مقدمة:

تناولت العديد من الأبحاث والدراسات التاريخية الحديثة موضوع العلاقات الفرنسية- السنوسية، غير إن جل هذه الأبحاث جعلت تركيزها ينصب على مرحلة الصراع المسلح الذي وقع بين الفرنسيين والسنوسيين في وسط أفريقيا في نهاية القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين. في حين أن جذور العلاقات الفرنسية- السنوسية التي ترجع إلى حوالي نصف قرن قبل بداية هذا الصراع المسلح، لم تحظ بدراسات وأبحاث موسعة[1]، وهي الفترة التي بدأت تزداد فيها مخاوف السلطات الفرنسية في الجزائر من ظهور شخصية محمد بن علي السنوسي على مسرح الأحداث في صحراء الجزائر.

لا شك أن أخبار السنوسي التي تناولتها تقارير القادة العسكريين في الجزائر، ومراسلات القناصل الفرنسيين في بنغازي وطرابلس وتونس، قد شكلت هاجساً لدى السلطات الفرنسية الحاكمة في الجزائر، الأمر الذي نتج عنه ظهور الكثير من الشائعات حول نوايا السنوسية وحقيقة دورها في دعم المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين. ومن هنا نستطيع القول أن العلاقات الفرنسية- السنوسية قد مرت بمرحلتين: المرحلة الأولى هي مرحلة الاكتشاف والترقب، وهي تلك المرحلة المرتبطة بموقف السنوسي من الاحتلال الفرنسي للجزائر، والمرحلة الثانية هي مرحلة الصراع المسلح، الذي نتج عن تضارب المصالح الاقتصادية بين الفرنسيين والسنوسيين في وسط أفريقيا.

وتكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يتناول مرحلة مهمة من مراحل العلاقات الفرنسية- السنوسية، لاسيما تلك الفترة المتعلقة بجذور استكشاف الفرنسيين للسنوسية وإعدادهم للتقارير السرية حولها، كما تكمن أهمية هذا الموضوع في أنه يتطرق إلى طبيعة موقف السنوسية من المقاومة الجزائرية للفرنسيين، كذلك تضارب المصالح الفرنسية- السنوسية وأثرها في تأجيج الشائعات حول السنوسية. وتجدر الإشارة إلى أن الاكتشاف الفرنسي للسنوسية لم يكن الأول لدى الأوروبيين، فقد سبقه اكتشاف بريطاني لا يجب إغفاله، إذ يرجع إليه الفضل في إعطاء الصورة الأولى حول الطريقة السنوسية وزعيمها محمد بن علي السنوسي.

وبناء على ما ورد أعلاه فإن هذا البحث سيسلط الضوء على العلاقات الفرنسية- السنوسية في مرحلة الاكتشاف والترقب (1840- 1902) من خلال المحاور التالية:

---

[1]) الإستثناء الوحيد الذي نعلمه الدراسة المقدمة من قبل (Jean Louis Triaud) في عام 1995، والتي اعتمدت في مصادرها على المراسلات والتقارير العسكرية في الأرشيف الفرنسي. انظر:

Jean Louis Triaud, **La Legende Nooire de la Sanusiyya– une Confrerie Musulmane Saharienne sous le Regard Francais (1840–1930)**, Editions de la Maison des Sciences de l'homme, Paris, 1995, PP. 21- 85.

أولاً: الاكتشاف البريطاني (إلهام الأسطورة السوداء للسنوسية).
ثانياً: الاكتشاف الفرنسي (ظهور الأسطورة السوداء).
ثالثاً: تضارب المصالح الفرنسية- السنوسية (أوج الأسطورة السوداء).

أولاً: الاكتشاف البريطاني (إلهام الأسطورة السوداء للسنوسية):

على الرغم من أن ظهور محمد بن علي السنوسي، ذو الأصول الجزائرية، على مسرح الأحداث في شمال أفريقيا كان يشكل خطراً محتملاً أو متوقعاً على الفرنسيين في الجزائر منذ نشأة الحركة في الحجاز عام 1837 وحتى استقرارها في برقة في نهاية عام 1842،[2] إلا أن الاكتشاف الأول للسنوسية لم يتم بواسطة الادارة الفرنسية في الجزائر، وإنما جاء على يد عدد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين بالتدريج.[3][3] ويرجع الدور الرائد في ذلك إلى المستكشفين البريطانيين، من خلال الرحالة البريطاني جيمس هاملتون (James Hamilton)، وذلك في منتصف القرن التاسع عشر. [4]

لقد كان من المتوقع أن نجد الملاحظات الأولى حول السنوسية بقلم الألماني هينرش بارث (Heinrich Barth)، والذي سبق هاملتون برحلة إلى برقة عام 1847، حيث كانت السنوسية قد استقرت هناك منذ خمسة أعوام. ولكن لم يكن هناك أية ملاحظات بواسطة ذلك الرحالة حول السنوسية، وذلك يعني بالنسبة إلينا، أن هذا المستكشف الألماني الكبير لم يقابل السنوسية إطلاقاً وبالتالي لم يكتب عنها.[5]

من المعروف أن السيد محمد بن علي السنوسي ترك مكة في عام 1840 عائداً إلى الجزائر، غير أنه توقف لفترة في طرابلس ثم عاد إلى برقة وقرر إنشاء زاوية ثانية (الزاوية البيضاء) في نهاية عام 1842 بالقرب من قورينا القديمة، في الموقع الذي يعرف حالياً بالزاوية القديمة في المدخل الغربي لمدينة البيضاء،[6] ومنذ ذلك

([2]) محمد فؤاد شكري، **السنوسية دين ودولة**، مركز الدراسات الليبية، أكسفورد، 2005، ص ص 45، 58.

[3] Jean Louis Triaud, Op. Cit, P. 21.

([4]) جيمس هاملتون، **جولات في شمال أفريقيا**، ت: المبروك محمد الصويعي، دار الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص 123.

([5]) لقد قام بارث باستكشاف الساحل الأفريقي الشمالي بين عامي 1845- 1847، وقد مر ببرقة عام 1847 وتكلم عن شحات وعن البدو المستقرين في الكهوف- الذين قابلهم جيمس هاملتون فيما بعد- وحدد هويتهم القبلية (الحاسة) ولكنه لم يشر أبداً إلى أية زاوية سنوسية في شحات، مع العلم أن الزاوية السنوسية في شحات تأسست عام 1845. انظر:
Heinrich Barth, **Travels and Discoveries in North and Central Africa in the years 1849- 1855**, The Keystone Publishing Col, Philadelphia, 1890, P 419.

([6]) محمد الطيب الأشهب، **السنوسي الكبير**، د.ن، د.م، 1956، ص 33.

الحين أخذت الجماعة تؤسس الزوايا وتجتذب عدداً متزايداً من الأتباع، ولكن الأمر تطلب حوالي عشر سنوات قبل أن يلتفت الأوروبيون لوجود تلك الجماعة الجديدة.[7]

لقد جاءت الإشارة الأولى حول السنوسية في المصادر الأوروبية على يد الرحالة البريطاني جيمس هاملتون الذي زار برقة عام 1852. ومن خلال تتبع ملاحظات هاملتون في هذه الرحلة يُلاحظ أنه لم يكن رحالة في المقام الأول، وإنما هو هاوٍ للآثار، زار المنطقة الممتدة من بنغازي إلى درنة مروراً بالجبل الأخضر بحثاً عن مواقع أثرية، وسلك في ذهابه طريق داخلي عبر المرتفعات، ورجع إلى بنغازي عبر الطريق الساحلي، ثم رحل بعد ذلك إلى دواخل برقة، ووصل إلى واحتي أوجلة وجالو، ومنها اتجه شرقاً إلى واحة سيوة حيث وصلها في نهاية يناير 1853، قبل أن يتوجه إلى القاهرة في مارس من العام نفسه. [8]

قابل هاملتون في تلك المناطق السنوسية عدة مرات متكررة، وبذلك ترك للقارئ الأوروبي الصور الأولى المعروفة عن الجماعة السنوسية في أرض أفريقيا. في الواقع إن شهادة هاملتون حول السنوسية ليست متجانسة- كما سوف نرى- إنها تتكون من ملاحظات متناقضة لا يمكن أن تؤدي إلى حكم محدد. ومع ذلك فإن بعض الملاحظات النقدية التي دونها هاملتون عن الحركة سوف تؤدي فيما بعد إلى إلهام الأسطورة السوداء للسنوسية.

عند زيارة هاملتون للجبل الاخضر مكث حول شحات (Grennah)[9] وهناك قابل لأول مرة أول مجتمع سنوسي وكتب قائلاً: "هناك شئ بغيض ومزعج في [شحات]، يميز البلد بشكل كبير بحيث لا يمكن إغفال ذكره، وهو وجود ذلك المجتمع الصغير من الدراويش أو المرابطين كما يطلق عليهم هنا، حيث استقروا مؤخراً في أحد أكبر الأضرحة قريباً من نبع المياه،[10] وهؤلاء ينتمون إلى إحدى الطرق الدينية التي تم تأسيسها حديثاً

---

[7] Jean Louis Triaud, Op. Cit, P. 21.

([8]) جيمس هاملتون، المصدر السابق، صفحات متفرقة.

([9]) قرنه هي التحريف العربي لاسم قورينا (شحات). ومن الواضح أن مترجم رحلة هاملتون (المبروك الصويعي) قد التبس عليه) على أنها قرنادة، وهي بلدة صغيرة تقع جنوب شحات. انظر: جيمس هاملتون، المصدر السابق،Grennahالأمر، وقام بتعريب (ص ص 123، 124، 131.

([10]) نبع أبوللو الشهير في المدينة الأثرية بشحات.

من قبل شيخ يدعى الشيخ السنوسي، ويتزعمهم في [شحات] شخص متعصب[11] وقد بلغت درجة تعصبه إلى الحد الذي لا يريد حتى أن يدنس عينيه بالنظر إلى شخص مسيحي".[12]

في الواقع إن شهادة هاملتون هذه لم تصدر بناء على نظرة متأنية أو معرفة مسبقة بطبيعة السنوسية وتعاليمها، وإنما جاءت كردة فعل من الرحالة البريطاني على سلوك بعض أفراد الزاوية السنوسية في شحات، والذين كانوا غير راغبين في مروره بالقرب من زاويتهم حسب ما ذكر الرحالة، ومع ذلك فإن هاملتون لم يقم بتجريم أحد في هذه الحادثة سوى شيخ الزاوية السنوسية في شحات والذي وصفه بالمتعصب،[13] في حين نجده يثني على شيخ الزاوية الرئيسية في البيضاء ويصفه بأنه: " رجل على أخلاق عالية وسلوك حسن"[14] خاصة أن هذا الأخير عندما علم بتلك الحادثة أرسل نائباً عنه إلى زاوية شحات فقام بتأنيب ومعاقبة الأشخاص الذين تعرضوا للرحالة بمن فيهم شيخ الزاوية هناك. [15]

وصل هاملتون بعد ذلك إلى بلدة ترت في الجنوب الشرقي من شحات، ووجد بها زاوية دينية أشار بأنها أيضاً تتبع الطريقة السنوسية، وذكر بأن السكان البدو في تلك البلدة لم يعاملوه بأية مودة على الإطلاق، وأرجع هاملتون السبب في ذلك إلى: "توجيهات الدراويش [السنوسيون] الذين كانوا في السنوات الأخيرة نشطين جداً في نشر شعور العداء ضد المسيحيين في هذه المناطق"[16]

([11]) ذكر دوفيريه أن شيخ الزاوية السنوسية في شحات من عام 1845 إلى 1883 هو شخص من مصراتة يدعى مصطفى الدردفي. انظر:

Henri Duveyrier, **La Confrerie Musulmane de sidi Mohammed ben Ali es-Senousi et son Domaine Geographique**, Paris, 1884, P. 63.

([12]) جيمس هاملتون، المصدر السابق، ص 123.

([13]) الغريب في الأمر أن الرحالة الألماني غيرهارد رولفس عندما زار زاوية شحات بعد زيارة هاملتون بستة عشر عاماً (1868)، تحدث عن معاملة في غاية اللطف من قبل أهالي الزاوية، وذكر أن شيخ الزاوية نفسه (مصطفى الدردفي) قد عرض خدماته على رولفس: " .. وأثناء فترة إقامتنا بأكملها كان تعامل الأهالي معنا في غاية اللطف، فقد حملوا إلينا ماعزاً وعسلاً وحليباً وسمناً للبيع، ورغم أنهم نظروا إلى آلة التصوير بتوجس زائد، إلا أنهم لم يزعجونا مطلقاً أثناء عملنا، وحتى سيدي مصطفى مقدم الزاوية السنوسية والتي شيدت قرب عين أبوللو، عرض علينا خدماته، وظهر لنا بذاته مع أنه يعتبر نفسه مباركاً، ونحن من جانبنا لم نجد أي دافع كي ننشد قربه". وفي اعتقادنا أن هذا التغير الجذري في معاملة الرحالة من قبل شيخ زاوية شحات وسكانها إنما جاء نتيجة لتوجيهات السنوسية وتعاليمها التي أخذت تترسخ في المنطقة مع مرور الزمن. انظر: غيرهارد رولفس، **رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية**، ت: عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2002، ص 164.

([14]) جيمس هاملتون، المصدر السابق، ص ص 123- 124.

([15]) المصدر السابق، ص 124.

([16]) المصدر السابق، ص 131.

والحقيقة إن هذا الحكم الذي أصدره هاملتون حول السنوسية هو حكم عنصري وغير دقيق، فلو أن هاملتون اطلع على ملاحظات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المناطق الليبية قبل عام 1842- أي قبل استقرار السنوسية في برقة- لوجد أن جلهم كان يشتكي من خشونة البدو ونفورهم من الأوروبيين، وهذا بالطبع راجع إلى طبيعة البدو الخشنة والبيئة القاسية التي يعيشون فيها، وليس إلى توجيهات السنوسية وتعاليمها كما ذكر هاملتون. وخير مثال على أولئك الرحالة الذين تذمروا من طبيعة البدو، الرحالة جون فرنسيس ليون (1818-1819)،[17] والرحالة جان ريمون باشو (1824- 1825).[18]

عند وصوله إلى واحة سيوة تعرض هاملتون إلى ما يشبه الإقامة الجبرية في أحد المنازل من قبل بعض سكان الواحة. ولكن على عكس ما كتب المستكشف الفرنسي دوفيريه (Duveyrier) بعد ذلك بثلاثين عام،19[19] فإنه لا يبدو أن السنوسية كان لهم يد في تلك الحادثة. على العكس تماماً، أثناء تلك الإقامة الإجبارية لمدة ستة أسابيع، ذكر هاملتون أنه كان يتلقى زيارات ودية من سنوسي مغربي الأصل، قدم له مجموعة من المعلومات حول الجماعة السنوسية ومؤسسها، حيث أعطى ذلك الوصف لهاملتون معلومات جديدة حول الحركة لم تكن متوفرة لديه في السابق:

"الشيخ السنوسي الذي أتيحت لي فرصة الحديث عنه في عدة مناسبات، هو مؤسس أكبر جماعة إخوان دينية تنتشر الآن في أنحاء قارة أفريقيا وتمتد فروعها من المغرب إلى الحجاز. وأصل هذا الشيخ من ولاية مستغانم في الجزائر، وقد حاز على تعليمه في فاس بالمغرب ويعيش حالياً في مكة حيث له هناك زاوية كبيرة[20] إلى جانب منزله، وهو شيخ متقدم في السن يبلغ من العمر الآن خمساً وستين سنة، ونظراً للنفوذ القوي الذي يتمتع به بين مختلف طبقات السكان فلابد أنه رجل ذو مواهب وقدرات خارقة ... وعلى ما يبدو إن هذه الطائفة هي أقل تطرفاً من الغالبية العظمى من العرب، ورغم أن مؤسسهم من أصل جزائري فإنه يكن- ولربما مجرد سياسة، احتراماً وتقديراً خاصاً للإنجليز، وعلى ما أظن إنني استفدت من ذلك كثيراً .."[21]

([17]) جون فرنسيس ليون، **مدخل إلى الصحراء**، ت: الهادي بولقمة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993، ص ص 107-108.

([18]) جان ريمون باشو، **رواية رحلة إلى مرمرة وقورينه وواحتي أوجلة ومرادة**، ت: مفتاح عبد الله المسوري، دار الجيل، بيروت، 1999، ص 90.

[19] Henri Duveyrier, Op. Cit, P. 63.

([20]) زاوية جبل أبي قبيس تأسست عام 1837.

([21]) جيمس هاملتون، المصدر السابق، ص ص 275- 279.

إن شهادة هاملتون الأخيرة عن السنوسية تعطينا هيكلاً منظماً نسبياً عن النواة الأولى للمعرفة الخاصة بتلك الجماعة. إن الصورة التي نستخلصها من هذا الوصف تقدم لنا جماعة قوية وملتزمة، ولا توجد أية اشارة عن تعصب مثل ذلك الذي حدث في الاتصال الأول في زاوية شحات. بل على العكس، يذكر هاملتون أن أعضاء زاوية السنوسي هم أقل تعصباً من بقية العرب. وبعيداً عن كونه قد ألهم (الأسطورة السوداء حول السنوسية) فإن هاملتون يمثل أول شهادة جيدة يلاحظها البريطانيون عن الجماعة السنوسية.

بعد هذا الاكتشاف البريطاني للسنوسية، والذي تمحور حول الزوايا السنوسية في برقة، ولم يكن له تأثير سياسي، جاء اكتشاف آخر فرنسي، مستقل ومختلف عن الأول، سوف يكون له تأثير طويل المدى على صورة السنوسية وعلى علاقتها بالسلطات الفرنسية بالجزائر.

ثانياً: الاكتشاف الفرنسي (ظهور الأسطورة السوداء):

مما لا شك فيه أن هاملتون قد ألقى بطريقته بعض الضوء عن السنوسية، ولكن مسيرته في النهاية كانت مسيرة رحالة مسافر. على العكس من ذلك كان للكشف الفرنسي علاقة مباشرة باحتلالهم للجزائر وموقف السنوسي من ذلك، فقد حصل الفرنسيون على معلومات في صحراء الجزائر أثناء عمليات الحرب في الجنوب الشرقي للبلاد، فخلال هذه الفترة كُشف النقاب عن شخصية محمد السنوسي. لقد ظلت هذه الاكتشافات الأولية محصورة داخل دائرة من المدراء والقناصل الفرنسيين لعدة أعوام، وظهرت أول مراجع مطبوعة فيما بعد خلال عام 1860. [22][22]

يمكن تحديد عام 1855 كتاريخ محدد لهذا الكشف الفرنسي. وبحسب جان لويس تريود (Jean Louis Triaud) الذي أجرى مسحاً لوثائق الأرشيف الفرنسي، فإن كل المعلومات الموجودة في الأرشيف تؤكد هذا التاريخ.[23] لقد كان أهم مستند فرنسي يشهد عن السنوسية بواسطة ليون روش (Leon Roches)[24] القنصل

---

[22] Jean Louis Triaud, Op. Cit, P. 31.

([23]) إن تحديد عام 1855 كتاريخ للكشف الفرنسي للسنوسية يمثل ظهور أول اشارة عن السنوسية في المصادر الفرنسية، وهذا لا يعني أن محمد بن علي السنوسي لم تكن له اتصالات بالجزائر قبل هذا التاريخ، كما سوف نلاحظ لاحقاً.

([24]) كان روش جاسوساً فرنسياً، اندس في جيش الأمير عبد القادر الجزائري بعد أن ادعى الإسلام وتسمى باسم عمر. وكان من اتباع الجنرال (بوجو) الذي أمره باصدار فتوى مع الشيخ التجاني تحرم الجهاد ضد الفرنسيين وأخذها إلى مكة لاقناع العلماء بها. وقد ذكر روش في مذكراته (اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام) أن محمد السنوسي كان الشيخ الوحيد الذي عارض الفتوى، وأفتى بوجوب استمرار الجهاد. وفي سن 36 عام بدأ روش عمله الدبلوماسي الذي قاده إلى طنجة (1846)، وطرابلس (1852)، وتونس (1855)، وأخيراً اليابان عام (1862). انظر: ليون روش، **اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام**، ت: محمد خير محمود البقاعي، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011، ص ص 12، 13، 148.

الفرنسي العام في طرابلس موجهاً إلى حكومة الجزائر في 23 مايو 1855. وقبل الحديث عن هذا المستند وتحليله يجب أن نفهم ملابساته. عندما بدأت القوات الفرنسية حملاتها للسيطرة على صحراء الجزائر ودخل الفرنسيون إلى (بسكرة) بوابة الصحراء الشرقية في عام 1844، فيما يسمى (صحراء قسطنطينة)، قابلوا في طريقهم شخصية يطلق عليها اسم محمد بن عبد الله التلمساني الذي قابلهم بمقاومة شديدة لمدة عشرات السنوات في الصحراء. 25[(25)] فمن هو محمد بن عبد الله هذا.. وما هي علاقته بالسيد محمد بن علي السنوسي ..؟

حتى عام 1840 لم يكن هذا الرجل معروفاً لدى الفرنسيين، وهو ينتمي إلى قبيلة (آل غسول) قرب عين تيموشنت، وقد توجه بعائلته إلى مدينة تلمسان واشتغل معلماً للقرآن الكريم في زاوية أولاد سيدي يعقوب. وعندما تزعم أغا قبيلة غسول (مولاي الشيخ) المعارضة ضد الأمير عبد القادر الجزائري استمال محمد بن عبد الله إلى صفه، واتفق الاثنان مع الفرنسيين على محاربة عبد القادر.[(26)] وحينما قام الجنرال الفرنسي (بوجو) بالزحف على تلمسان في عام 1842 لافتكاكها من الأمير عبد القادر كان محمد بن عبد الله واتباعه ضمن القوات الفرنسية، وكان يطمح في أن يعينه الجنرال بوجو خليفة على تلمسان بصفة رسمية، وقد كان له ما أراد فحظي بالمنصب المذكور.[(27)]

يبدو أن دور محمد بن عبد الله لم يرتق لمستوى الآمال التي علقت عليه من قبل الفرنسيين، كما أنهم كانوا يشكون في إخلاصه لهم، فقد عمدو إلى مضايقته واستفزازه الأمر الذي جعله يغير من سياسته تجاه الإستعمار الفرنسي. ومن بين تلك الأساليب الاستفزازية أن الجنرال بوجو حاكم تلمسان طلب منه أن يحلف على مصحف لتأكيد إخلاصه للفرنسيين، كما طلب منه أن يترحم على عدد من الفرنسيين الذين قتلوا خلال المعارك السابقة لاحتلال تلمسان، وذلك خلال مراسم دفنهم، الأمر الذي شكل تحدياً للشعور الإسلامي، ولذلك رفض محمد بن عبد الله الامتثال لهذا الطلب.[(28)] ومن هنا ازدادت شكوكهم ضده واتهموه بالتقصير والعجز، ولكي لا يجعلوا منه خصماً جديداً اقترحوا عليه أن يتوجه إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج، وكان ذلك بمثابة نفي غير رسمي. فما كان عليه إلا الامتثال لهذا الإجراء.[(29)]

[(25)] Jean Louis Triaud, Op. Cit, PP. 31-32.

([26]) يحيى بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، منشورات المتحف الوطني، الجزائر، 1996، ج1/ ص 150.

([27]) الأمير محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر**، شرح وتعليق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964، ص ص 263- 267.

([28]) يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ج1/ ص 151.

([29]) إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 115.

وهكذا غادر محمد بن عبد الله تلمسان غاضباً وحاقداً على الفرنسيين واتجه إلى مكة حيث أدى فريضة الحج. وقد اختلفت المصادر حول تاريخ هذه الرحلة، فمنها ما ذكر أنها كانت في سنة 1845،[30] في حين ذكرت مصادر أخرى أنها كانت في عام 1847.[31][31] والواقع أن المصادر لم تتفق في كثير من تفاصيل السيرة الذاتية لهذا الرجل. ففي الوقت الذي تشير فيه المصادر الفرنسية أن اسمه الحقيقي هو عبد الله السناهي (Essenahi)، وأنه توفي في الجغبوب عام 1876،[32][32] نجد أن المصادر العربية تذكر أن اسمه الحقيقي هو إبراهيم بن أبي فارس،[33] وأنه توفي في الصحراء التونسية عام 1895.[34] والحقيقة أننا نجهل السبب في تضارب المعلومات حول الاسم الحقيقي للرجل، وإن كنا نرى أن اختياره لاسم محمد بن عبد الله (على اسم الرسول صلى الله عليه وسلم) كان رغبة منه في إضفاء طابع ديني على حركته ليلتف حوله الجزائريون، وأيضاً لإخفاء اسمه الحقيقي عن السلطات الفرنسية.

بالرغم من عدم دقة المعلومات في كثير من تفاصيل حياته، فإن كل المصادر تتفق في كونه تابع مخلص لمحمد بن علي السنوسي، الذي عرفه في مكة في الفترة ما بين عامي (1846- 1850)،[35][35] وتتلمذ على يده وأصبح من أهم أتباعه، وكان يلتقي به في زاوية أبي قبيس[36] بمكة المكرمة، والتي كانت بمثابة ملجأ لكل الجزائريين المتواجدين هناك.[37] ويبدو أن تلك اللقاءات بين الرجلين في مكة قد أسفرت عن رغبة كليهما في العودة إلى الجزائر إذا ما أتيحت لهما فرصة العودة، لرفع راية الجهاد ضد الفرنسيين، خاصة أن أوضاع الجزائر خلال هذه الفترة كانت جد مناسبة للقيام بالثورة ضد الاحتلال، فقد قام الفرنسيون بترحيل عدد من قواتهم إلى فرنسا في أعقاب ثورة 1848 التي كانت باريس مسرحاً لها، بالاضافة إلى استمرار النشاط الثوري والتذمر في أغلب مناطق الجزائر وخاصة الوسطى والشرقية.[38]

([30]) المرجع السابق، نفس الصفحة.

[31] Jean Louis Triaud, Op. Cit, P. 33.

[32] Ibid, PP. 33, 64.

([33]) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية (1830- 1900)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ج1/ ص 355.

([34]) إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 128.

[35] Jean Louis Triaud, Op. Cit, P. 33.

([36]) ذكر المؤرخ يحيى بوعزيز أن محمد بن عبد الله اشترك مع محمد السنوسي في تأسيس هذه الزاوية. وهذا بالطبع غير صحيح، لأن زاوية أبي قبيس تأسست عام 1837. وفي هذه السنة لم يكن محمد بن عبد الله قد سافر إلى الحج، كما أنه لم يكن معروفاً حتى في تلمسان نفسها. انظر: يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ج1/ ص152.

([37]) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ج4/ ص 42.

([38]) يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ج1/ ص 153.

لا شك أن هذا الوضع لم يكن غائباً عن ذهن كل من ابن السنوسي وابن عبد الله اللذين قررا اسغلاله قدر الامكان. ويبدو أن السنوسي قد طلب من محمد بن عبد الله أن يسبقه إلى الجزائر ويشرع في الاعداد للمقاومة والجهاد، وربما أخبره بأنه سيلحق به عندما تسعفه الظروف. وهكذا رحل محمد بن عبد الله من الحجاز في اتجاه طرابلس بمعية حاكمها التركي عزت باشا (1848- 1852) الذي كان يؤدي فريضة الحج. وكان وصولهما إليها في 20 أبريل 1851. ومن طرابلس اتجه محمد بن عبد الله إلى غدامس في الجنوب الغربي ومنها رحل إلى ورقلة في جنوب شرق الجزائر.[39]

حصل محمد بن عبد الله على استقبال كبير في ورقلة بصفته رجل دين وشريف قادم لتوه من الحج. وفي أغسطس 1851 بايعه سادة المدينة سلطاناً عليهم. وهكذا بدأت مغامرة جديدة له بصفته (شريف ورقلة)، واخذت الصحراء تتناقل شائعات محترمة حول هذا الشريف الذي يتبنى الجهاد ضد فرنسا. وحين ثار أهالي (الأغواط)- وهي مدينة أخرى في الصحراء تقع على بعد 300 كيلو متر في الشمال الغربي من ورقلة- ضد الفرنسيين، قام محمد بن عبد الله بمساندتهم ودخل المدينة منتصراً في 2 نوفمبر 1852. ولقد تم إرسال عدة قادة فرنسيين لاخماد الثورة في هذه المدن، وفي يناير 1854 استطاع الفرنسيون دخول ورقلة، ثم دخلوا (تُقرت) في 2 ديسمبر 1854، وهي أكبر مدينة في المنطقة تقع شمال ورقلة، وكان يحكمها في ذلك الوقت حليف للشريف محمد بن عبد الله وهو سلمان بن جلاب. وتم مطاردة محمد بن عبد الله فهرب إلى تونس. ثم ظهر من جديد فيما بعد نحو عام 1857 في توات وتم القبض عليه في النهاية بواسطة الفرنسيين في أواخر عام 1861.[40][40]

خلال هذه الفترة التي كان يحتمي فيها محمد بن عبد الله لاجئاً في تونس بدأت التلميحات الأولى حول علاقته بالسنوسي في الظهور في المراسلات الرسمية الفرنسية. لقد جاءت المعلومات من الكولونيل دسفاكس (Desvaux) الذي أصبح القائد العسكري لقطاع (باتنة)، وهو الذي قاد الحملة على (تُقرت). إن رحيل محمد السنوسي من الحجاز في نفس الفترة،[41] في اتجاه برقة ساعد على تأجيج بعض الشائعات التي تتناقل في الصحراء وتصل إلى آذان الفرنسيين.[42][42] الأمر الذي سوف نرى كيف أنه- طوال النصف الثاني من القرن

([39]) المرجع السابق، نفس الصفحة.

[40] Jean Louis Triaud, Op. Cit, P. 33.

([41]) ترك محمد السنوسي الحجاز عام 1854 متوجهاً إلى برقة، حيث اسقر في منطقة العزيات وأسس زاوية هناك، ثم انتقل في عام 1856 إلى زاوية الجغبوب التي جعلها مركزاً للحركة السنوسية، وظل فيها حتى وفاته في 7 سبتمبر 1859. انظر: محمد صدقي الدجاني، **الحركة السنوسية- نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر**، د.ن، القاهرة، 1988، ص ص 98، 102. انظر أيضاً: E. E. Evans Pritchard, **The Sanusi of Cyrenaica,** Clarendon Press, Oxford, 1949, PP. 14, 18, 19.

[42] Jean Louis Triaud, Op. Cit, P. 34.

التاسع عشر- أدى إلى تأسيس أيدولوجية (الأسطورة السوداء للسنوسية) من جانب الفرنسيين، والتي اعتبروها منافس أو عدو وغريم أمام التوسع الفرنسي ومصدر كل العقبات التي واجهت هذا التوسع.[43](43)

على أي حال فقد بدأت المعلومات تصل من الصحراء تحت عنوان (أخبار الجنوب) في مراسلات من قطاع باتنة موجهة إلى قطاع قسطنطينة. لقد كتب دسفاكس في 30 مارس 1855: " هناك أصداء تتناقل في الصحراء حول المدعو السنوسي الذي عاد من مكة بهدف تعبئة حرب مقدسة. إن ذلك المتعصب قد جذب الأنظار في أحداث الجنوب". وفي 11 أبريل جلب الجنرال دسفاكس معلومات جديدة (مكملة) وطلب فتح تحقيق: " إن اسم الشريف الجديد السنوسي يستمر في جذب الأنظار مؤخراً في الصحراء. إن هذا الملقب (سي السنوسي) زعيم نظام الدرقاوية في المغرب. لقد رحل منذ عدة سنوات إلى مكة، وبالرغم من بعده أصبح كل من عمر بن جديدة ومحمد بن عبد الله التلمساني خليفة له. لقد أُعلن الآن أن سي السنوسي في طريقه عائداً ومعه مجموعة من الأخوان. لقد ترك الجبل الأخضر في جنوب بنغازي ويُنتظر وصوله قريباً إلى الجريد في تونس. هناك بالفعل مغالاة كبيرة في كل هذه الضجة وليس هناك شك أن الشريف وسلمان يستغلان وصول سي السنوسي، إن ذلك الاسم يشكل تهديداً بالنسبة إلينا، لا يجب إغفاله، لأنه مؤشر على مشاريع يغذيها هؤلاء المشاغبين ومثيري الفتن الذين لا يثنيهم شئ. اعتقد أنه من المفيد أن نطلب من السيد الحاكم العام عمل تحريات عن ذلك الشريف الجديد بواسطة القناصل العموميين في تونس وطرابلس".[44](44)

من خلال التمعن في مضمون هذه المعلومات يُلاحظ أنه حتى تاريخ هذه المراسلة- 11 أبريل 1855- فإن محمد بن علي السنوسي كان بالنسبة للفرنسيين رجلاً جديداً، وكانت سيرته الذاتية غامضة بالنسبة إليهم. فمعلومات الفرنسيين حتى تلك الفترة تشير إلى أن أصل السنوسي من المغرب وأنه رحل إلى مكة، ثم جاء ليعيش بالجبل الأخضر في برقة، ولكنهم يجهلون أصله الجزائري. لقد رأوا فيه شريف جديد في الصحراء على صورة ومثال محمد بن عبد الله.

لقد تمت الاستجابة لتحذيرات دسفاكس في غضون ثلاثة أيام، ففي 14 أبريل أرسلت مقاطعة قسطنطينة رسول خاص للحاكم العام في الجزائر حول موضوع (الشريف الجديد سي السنوسي)، وتم إرسال نسخة من رسالة قسطنطينة في نفس الوقت للقناصل الفرنسيين في تونس وطرابلس وأُعيد فيها صياغة المعلومات التي وردت في رسالة دسفاكس. وفي 23 أبريل اتبع الحاكم العام للجزائر توصيات باتنة وقسطنطينة وقام بطلب

(43) Jacques Fremeaux, **Jean Louis Triaud. La Legende Nooire de la Sanusiyya: une Confrerie Musulmane Saharienne sous le Regard Francais (1840–1930)**, (in): Annales, Histoire, Sciences Sociales, Vol. 52, No. 1, 1997, P. 192.

(44) Jean Louis Triaud, Op. Cit, P. 34.

المعلومات من تونس وطرابلس. لأن الحكومة العامة بالجزائر لم تكن لديها معلومات عن محمد السنوسي حتى ذلك التاريخ، لذلك قامت بالبحث عن معلومات من الخارج.[45]45

في 8 مايو رد قنصل فرنسا في تونس بأنه سوف يستشير الوكلاء القنصليون في صفاقس وجربة حول السنوسي. بعد عشرة أيام تم إرسال استعجال لهذا الموضوع للوكلاء القنصليين في جنوب تونس. وفي 19 يونيو قام ماتي (Mattei)، الذي تعتبر عائلته احدى دعائم التجارة والاستعلامات الفرنسية في المنطقة، بالرد على تونس. لقد ذهب ماتي بنفسه إلى نفزاوه حيث تجتمع قوات محمد بن عبد الله وحلفائه، وكتب أن: "محمد بت عبد الله شريف ورقلة، خليفة المقدم السيد السنوسي الذي يوجد في الجبل الأخضر، يعسكر على بعد 30 كيلو متر جنوب نفزاوه، إن لديه 2000 فارس و 5000 مشاة"، وقد كتب أيضاً: "أن الشريف سيدي السنوسي لديه عدة أتباع من المغاربة".[46]46

في الواقع إن تقرير ماتي لا يضيف الكثير من المعلومات. ولكنه فقط يؤكد الشائعات السابقة حول علاقة السنوسي بمحمد بن عبد الله، ويكرر المعلومات التي سبق تناولها في التقارير السابقة عن مكان تواجد محمد السنوسي في منطقة الجبل الأخضر.

إن رد فعل ليون روش القنصل الفرنسي في طرابلس- الذي سبق ذكره- يعد أكثر أهمية وتشويقاً. في 11 مايو 1855 طلب روش من زميله القنصل الفرنسي في تونس تحذير حكومة الجزائر بأنه يعلم أنشطة السنوسي: "أرجوك أن تكتب إلى الجزائر أنني منذ ثلاثة شهور أقوم بتتبع أخبار الشيخ السنوسي الذي يراسل تلميذه محمد بن عبد الله وسيدي محمد ولد عقبة. إن حامل الرسائل وخادم الشيخ الكبير هم من أصدقائي. ولذلك فإنني أتابع الأحداث، إن السنوسي لم يترك الجبل الأخضر وأرجوا أن لا يتركه"[47]47

في 23 مايو، أي بعد شهر من استلامه لطلب حكومة الجزائر، توجه ليون روش للحاكم العام في الجزائر بالإشعار الذي تحدثنا عنه سابقاً: "بالرغم من أن الشيخ السنوسي لابد وأنه قد كان معروفاً لدى السلطات العربية في الجزائر، [كما كتب روش في رسالته]، فإنني أعتقد أنه من المفيد أن نضيف هنا ملحوظة صغيرة، بالفعل لقد رأيناه".[48]48

(45) Ibid, P. 35.

(46) Ibid, P. 35.

(47) Ibid, P. 36.

(48) Ibid, P. 36.

إن السلطات الفرنسية في الجزائر ليس لديهم أي شئ في ملفاتهم حول الشريف الجديد وأصله، كما كان ليون روش يعتقد. لقد كان المستند الخاص بروش هو أول من أعطى معلومات هامة حول السنوسي، فقد قام بتعريف حكومة الجزائر به حيث كانت تجهله حتى ذلك الوقت، وكانت تجهل أن الموطن الأصلي لمحمد السنوسي هو مستغانم، لذلك طلبت الجزائر من قطاع مستغانم معلومات حول الشخصية. في 16 نوفمبر 1855 أرسل الكولونيل هوجو (Hugo) الذي يرأس القطاع إلى الحاكم العام في الجزائر نتائج التحقيقات حول محمد السنوسي، والذي كان بالفعل معروفاً داخل البلاد.[49](49)

خلاصة القول إنه خلال أقل من عام، بسبب الشائعات التي تتناقل في الصحراء، اكتشفت السلطات الفرنسية وجود شخصية كانت تجهل وجودها، رغم أنها كانت تتمتع بالنفوذ والشعبية بين الجزائريين. لقد جاءت المعلومات الأكثر دقة من القنصل الفرنسي في طرابلس، ولاشك أن نائب القنصل الفرنسي في بنغازي كان مشتركاً فيها، بسبب قربه من مكان تواجد السنوسي في الجبل الأخضر. ومن هنا أتت الملاحظات الأكثر أهمية عن السنوسية. ومن هنا أيضاً بدأت الأسطورة السوداء حول السنوسية تظهر في تقارير القناصل وكتابات الرحالة الأوروبيين، والتي ازدادت حدتها طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، خاصة بعد امتداد نفوذ السنوسية في وسط أفريقيا، الأمر الذي أدى إلى تضارب مصالحها مع المصالح الاقتصادية والاستعمارية للفرنسيين في تلك المناطق.

ثالثاً: تضارب المصالح الفرنسية- السنوسية (أوج الأسطورة السوداء):

باستثناء دعمها لحركة محمد بن عبد الله ضد الفرنسيين في الجزائر، يبدو أن السنوسية لم تكن تعول كثيراً على العمل العسكري والجهاد المسلح في علاقتها مع الفرنسيين، فبعد فشل المقاومة المسلحة لشريف ورقلة قامت السنوسية بتشجيع أبناءها وتلاميذها على الإنتظار المؤقت، حيث إن كل محاولات المقاومة كان محكوماً عليها بالفشل مسبقاً. ومن هذا المنطلق لم يقم السنوسيون بأي عمل مسلح حتى عام 1902 عندما اصطدم نفوذهم بالنفوذ الفرنسي في أفريقيا. قبل هذا التاريخ يبدو أن السنوسية لم تكن سوى جماعة دينية تقليدية تهدف إلى الإصلاح والتبشير بالدين الإسلامي، ولم تكن لها أجندات سياسية غامضة كما كان يصورها الكتاب الاستعماريين في نهاية القرن التاسع عشر.[50](50) وخير دليل على ذلك رفضها مساعدة الأتراك في حربهم ضد الروس (1876- 1878)، كما رفضت التدخل في ثورة عرابي في مصر سنة 1882، وكذلك الثورة المهدية في السودان سنة 1883.[51](51)

(49) Ibid, P. 36.

(50) Jacques Fremeaux, Op. Cit, P. 193.

(51) E. E. Evans Pritchard, Op. Cit, P. 23.

رغم ابتعاد السنوسية، مؤقتاً، عن فكرة الجهاد والمقاومة المسلحة خلال تلك الفترة، لم يتوقف الفرنسيون عن التشكيك في نوايا الحركة، وازدادت مخاوفهم بسبب عزلة الطريقة وطبيعتها السرية. الأمر الذي أدى إلى ظهور الكثير من الشائعات التي أجّجتها شكاوي الرحالة والمدراء الفرنسيين في الجزائر حول جرائم قتل مزعومة دبرها السنوسيون في الصحراء، واخذت الكتابات الفرنسية تصور السنوسيين باعتبارهم متعصبين وقتلة.[52](52)

وهكذا وقفت فرنسا موقفاً عدائياً من الحركة السنوسية وشنت عليها حرباً دعائية بواسطة رحّالتها الذين أرسلتهم لمراقبة الحركة وتحركاتها في صحراء برقة والسودان، ولعل أبرز هؤلاء تعصباً في كتاباته الرحالة دوفيريه الذي بالغ في اتهاماته للسنوسية ورأى فيها خطراً عظيماً يهدد مصالح فرنسا في أفريقيا، واعتبرها مسؤولة عن جميع حوادث الاغتيال التي تعرض لها الرحالة الأوربيون في الصحراء، واتهمها بالتعصب وبتحريك الثورات ضد فرنسا في الجزائر(53)، وقد استمرت النظرة المتعصبة حول السنوسية في لب الكتابات الفرنسية والأوروبية طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ثم ظهرت كتابات منصفة للسنوسية في منتصف القرن الماضي، وردّت على تلك التهم، لعل أبرزها كتابات بريتشارد الذي نقد دوفيريه ومبالغاته(54)، وكذلك كتابات جان لويس تريود(55)، لكن أقدم- وأضنه أفضل- نقد للطرح الذي قدمه دوفيريه جاء على لسان القنصل البريطاني في بنغازي مستر كاميرون، ففي رد له على مذكرة استلمها من وزارة الخارجية عن السنوسية بتاريخ 1889/5/13، اشتكى من أن المعلومات التي تحتويها المذكرة كانت مستقاة بالكامل من كتابات دوفيريه: "لا يمكن أن يكون الفرنسيين هم معلمينا عن الإسلام. فالفرنسيون يحبون القصص البوليسية للمجتمعات السرية والمكائد السياسية... لسوء الحظ، فإن هذه القصص تفقد سحرها بالترجمة للإنجليزية مباشرة. إن بطل دوفيريه هو أمون المسلم الجديد؛ فمشهد قصته هو سراب الصحراء" واختتم كاميرون قوله بأن: "السنوسية هي مسألة سياسية محلية لبرقة ولا يمكن أن تكون أي شيء آخر"(56).

على أي حال فقد استمرت مرحلة الترقب والحذر في العلاقات الفرنسية السنوسية حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حيث فضل أصحاب القرار في السياسة الفرنسية مراقبة السنوسيين بدلاً من محاربتهم. لكن

(52) Michel F. Le Gall, **Pashas – Bedouins and Notables: Ottoman Administration in Tripoli and Benghazi, 1881-1902**, PH.D. Princeton University, New Jersey, 1986, P. 189.

(53) Henri Duveyrier, Op.Cit. PP. 75 – 76.

(54) E.E. Evans Pritchard, Op. Cit, P. 6.

(55) Jean Louis Triaud, Op. Cit, PP. 80 - 81.

(56) Michel F. Le Gall, Op. Cit, P.190.

المواجهة الحقيقية بين الطرفين جاءت بعد تغلغل فرنسا في المناطق الصحراوية في السودان الأوسط والتي كانت تمثل مجالاً تبشيرياً وتجارياً للسنوسيين[57].

لقد كانت السنوسية منتشرة بزواياها وعلاقاتها التجارية مع إقليم تشاد منذ عهد مؤسس الحركة محمد السنوسي، حيث وجه نشاطه صوب الجنوب على امتداد الطرق التجارية لدواخل أفريقيا، إلى فزان والمناطق التي عرفت بالصحراء الفرنسية، فقد كانت تجارة وسط أفريقيا تجد طريقها على امتداد الطرق المؤدية إلى موانيء برقة وطرابلس، كما اكتسبت الحركة أرضاً في واداي، فمنذ أن كان السنوسي طالباً في مكة كوّن صداقة مع محمد الشريف والذي أصبح فيما بعد سلطاناً لواداي وعزز مصالح الحركة هناك، وفي عهد خلفه المهدي السنوسي توسعت الحركة في مناطق السودان، خاصة بعد انتقاله بمقر الحركة إلى الكفرة ثم إلى قرو، وازدادت الطرق التجارية بين برقة والسودان الأوسط أهمية في عهده. واستفادت السنوسية سواء بالمشاركة المباشرة في التجارة والنقل أو من خلال الرسوم الجمركية، ولم ينته القرن التاسع عشر إلا وكانت الحركة السنوسية منتشرة في أراضي كوار، وتيبستي، وبوركو، وإندي، ودارفور، وواداي، وكانم، وأزجر، وباجيرمى. وقد وقع عبء تنظيم دعوة السنوسية إلى حد كبير على تلاميذ السيد المهدي، ومنهم سيدي محمد البراني في كانم، حيث أسس زاوية في بيرعلالي على الطريق إلى تشاد، ونظم فرقاً من قبائل أولاد سليمان، والزويّا، والمغاربة، والتبو، والطوارق، لمعارضة تقدم الفرنسيين إلى وسط أفريقيا[58]، كما كان محمد بن عبد الله السُني مندوباً خاصاً للمهدي في أبشة عاصمة واداي منذ أواخر 1897، وهو عبارة عن سفير ومشرف تجاري في آن واحد[59].

تزامن خطر التقدم الفرنسي إلى السودان الغربي والأوسط مع ظهور خطر آخر تمثل في قيام مملكة رابح وسيطرته على باجيرمي وبورنو. ورابح هذا شارك في الثورة التي قادها سليمان بن الزبير ضد الحكومة المصرية في بحر الغزال، وعندما هُزم سليمان وقتل وأخفقت ثورته سنة 1879، جمع رابح فلول الجيش وانسحب إلى دار مغنا، وبدأ بشن الغارات على المناطق المجاورة، فاستولى على باجيرمي عام 1892، ثم احتل مملكة بورنو في عام 1894، في تلك الفترة نفسها كان الفرنسيون قد ركزوا اهتمامهم على تلك المناطق

(57) Jacques Fremeaux, Op. Cit, P. 193.

(58) E. E. Evans Pritchard, Op, Cit, PP.16, 21, 22.

(59)Glauco Ciammichella, **Libyens et Francais au Tchad (1897–1914): La Confrerie Senoussie et le Commerce Transsaharien**, Editions du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris, 1987, P. 45.

بعد توطيد سلطانهم في السنغال والنيجر، وعقدوا معاهدة مع الإنجليز عام 1890 اعتُبرت بموجبها معظم الصحراء الوسطى والغربية منطقة نفوذ فرنسية، وألحقوها بمعاهدة أخرى مع الألمان عام 1894 لاعتبار المنطقة الممتدة حتى بحيرة تشاد تخضع للنفوذ الفرنسي أيضاً. لذلك انزعجت فرنسا من نشاط رابح وشعرت بخطر مملكته على مصالحها، ولكي تتمكن من ضربه استمالت سلطان باجيرمي المخلوع[60]، وقد حاول المهدي السنوسي أن يؤلف بين سلاطين تلك الممالك، واقترح على رابح السلام والتعاون ضد الخطر الفرنسي، لكن الأخير استقبله بحماس فاتر، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين رابح والفرنسيين وانتهت بهزيمة الأول ومقتله عام 1900، وسقوط مملكته في يد الفرنسيين الذين باتو يهددون منطقة كانم التي توجد فيها زاوية السنوسيين الشهيرة والمحصنة في بير علالي.

بالرغم من أن بعض الباحثين يرى أن التغلغل الفرنسي في السودان الأوسط كان مرتبطاً بدوافع وأسباب جغرافية وسياسية استيطانية، وكذلك بدواعي الضغوط الحربية على الأراضي وفقاً للمعاهدة الفرنسية الإنجليزية[61]، فإن الدافع الحقيقي وراء هذا التغلغل كان يكمن في السعي للاستيلاء على المناطق والواحات الموجودة على الطرق الرئيسية لغرض التحكم بمصادر التجارة ومراقبتها[62]، لهذا سعت فرنسا إلى تهميش طرق القوافل التجارية القادمة من السودان إلى طرابلس وبرقة، وتحويل مسارها نحو مناطق غرب أفريقيا والجزائر وتونس، التي كانت تسيطر عليها آنذاك[63].

تحقيقاً لهذا الهدف تعاونت فرنسا مع الحاج إيخنوخن شيخ وزعيم طوارق غدامس، والذين كانوا يسيطرون على طرق طرابلس مع وسط وغرب أفريقيا وأبرمت معه اتفاقية في 26 نوفمبر 1862، تضمنت 8 بنود، لعل أهمها التزام الطوارق بتسهيل وحماية التجار والبضائع التجارية الفرنسية ذهاباً وإياباً إلى بلاد السودان، والتزام الطرفين بفتح طرق التجارة، وإصلاحها، وضبطها، وإصلاح الآبار، وإزالة كل العراقيل في

---

[60] أحمد الدجاني، المرجع السابق، ص 228 .

[61] Glauco Ciammichella, Op. Cit, PP.51, 70, 71, 74.

[62] عبد الرحمن تشايجي، **الصراع التركي– الفرنسي في الصحراء الكبرى**، ت: علي أعزازي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1982، ص 45.

[63] سعيد عبد الرحمن الحنديري، **المحاولات الفرنسية لتحويل وجهة القوافل العائدة من السودان إلى الجزائر**، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، السنة الثامنة عشر، العدد الأول، 1996، ص ص 98– 100.

وجه نشاط التجار الفرنسيين بين الجزائر والسودان عبر غدامس[64]، الأمر الذي أثار قلق الباب العالي، لذا كلف والي طرابلس محمود نديم باشا (1860- 1866) بالتحقق من نوايا الفرنسيين وتحركاتهم، وقد أفاد بأن الاتفاقية التي سبق وأن وقعتها فرنسا مع زعيم الطوارق تهدف إلى تحويل طرق التجارة إلى الجزائر بدلاً من طرابلس الغرب، مشيراً إلى ضرورة العمل على مواجهة التغلغل الفرنسي[65].

وفي هذا الصدد أشار تقرير موجه من القنصل البريطاني في طرابلس إلى سفير بريطانيا في الأستانة بتاريخ 15 فبراير 1896 إلى أن الحكومة الفرنسية في تونس تعمل على مضاربة التجار الطرابلسيين في غدامس من خلال إغراق سوقها ببضائع مجلوبة من تونس وبأسعار أرخص، وأضاف أن الحكومة الفرنسية عملت منذ سنوات على فتح سوق أسبوعي في (تتانين) وحفرت آبار على طول الطريق مع تونس، الأمر الذي يقضي على التجارة في طرابلس[66].

وهكذا يتضح أن المصالح التجارية، والرغبة في السيطرة على المناطق المؤثرة في طرق القوافل التجارية الرئيسية كانت إلى حد كبير هي الدافع وراء رغبة كل من الفرنسيين والسنوسيين في السيطرة على مناطق السودان الأوسط وتشاد على وجه الخصوص، إلى جانب دوافع السنوسية الدينية المتمثلة في نشر الدين الإسلامي في مناطق أفريقيا الوثنية، وأياً كانت الأسباب والدوافع فإن الصدام المسلح الذي تجنبته الحركة السنوسية مع الفرنسيين لما يقرب من نصف قرن كان لابد له أن يقع، خاصة بعد هزيمة رابح وتقدم القوات الفرنسية نحو كانم عام 1902. ومنذ ذلك التاريخ بدأ الصراع المسلح بين الفرنسيين والسنوسيين والذي استمر حتى عام 1914 [67].

الخاتمة:

من خلال دراسة موضوع العلاقات الفرنسية- السنوسية في مرحلة الاكتشاف والترقب (1840- 1902)- أي قبيل بداية الصراع المسلح- يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

---

[64] يحيى بو عزيز، **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر**، مؤتمر تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984، ص ص 142– 143.

[65] عبد الرحمن تشايجي، المرجع السابق، ص ص 73-74.

[66] أحمد سعيد الفيتوري، **ليبيا وتجارة القوافل**، الادارة العامة للآثار، طرابلس، 1972، ص ص 40– 42.

[67] Glauco Ciammichella, Op. Cit, PP. 110 – 113.

1- إن الاكتشاف البريطاني للسنوسية عام 1852 على يد الرحالة جيمس هاملتون يعد أول اكتشاف أوروبي للحركة في برقة. وهذا يعني أن الأوروبيين لم يلتفتوا إلى نشاط السنوسية إلا بعد عشرة أعوام من استقرارها في برقة.

2- تعد ثورة محمد بن عبد الله (شريف ورقلة) واحدة من أهم الثورات التي قامت خلال القرن التاسع عشر ضد الإحتلال الفرنسي في جنوب الجزائر. وهي الثورة التي قامت تحت الغطاء السياسي والديني للحركة السنوسية، وإن الجماعة استخلصت دروساً مستفادة من فشل هذه الثورة في صحراء الجزائر، الأمر الذي جعلها تغير استراتيجيتها جنوباً نحو وسط أفريقيا.

3- أثبتت وثائق الأرشيف الفرنسي في الجزائر عدم علم السلطات الفرنسية بشخصية محمد السنوسي قبل عام 1855، أي أن السنوسي لم يدخل في إطار المعلومات الاستخبارية الفرنسية إلا قبل وفاته بأربعة أعوام فقط. كما أثبتت الوثائق أن ليون روش القنصل الفرنسي في طرابلس كان له الدور الأهم والأبرز في هذا الاكتشاف الفرنسي. وهذا ربما يجعلنا نشك في بعض المعلومات- التي كنا نعتبرها من المسلمات- والتي قدمها بعض المؤرخين مثل الأشهب، وشكري، والدجاني وغيرهم، والتي مفادها أن الفرنسيين كانوا يترقبون السنوسي منذ رحلته الأولى من الحجاز إلى المغرب في عام 1840، وذلك بسبب الاسقاط الزمن الذي وقع فيه هؤلاء نتيجة الأحداث اللاحقة.

4- إن المبالغة والتضخيم في تقارير المدراء الفرنسيين حول السنوسية في صحراء الجزائر، هو ما أدى إلى ظهور الكثير من الشائعات عن الحركة في كتابات الرحالة طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ولعل أبرزهم المستكشف الفرنسي دوفيريه الذي يعد من أكثر الكتاب مبالغة حول السنوسية، وهو من أهم مخترعي الأسطورة السوداء للسنوسية.

5- إن الرغبة في السيطرة على الطرق التجارية في وسط أفريقيا تعد من أهم أسباب تضارب المصالح السنوسية- الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر. فرغم أن زعماء السنوسية كانوا ينظرون إلى الصحراء على أنها بلاد الدعوة والتبشير بالدين الإسلامي. ولكنهم أيضاً كانوا يرونها بلاد الطرق التجارية. في المقابل كان الفرنسيون يحاولون إحياء التجارة عبر الصحراء وتحويلها إلى مستعمراتهم في الجزائر وتونس.

مصادر ومراجع البحث

أولاً: مراجع وأبحاث باللغة العربية:

- أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية (1830- 1900)**، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
- ـــ، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الرابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994.
- أحمد سعيد الفيتوري، **ليبيا وتجارة القوافل**، الإدارة العامة للآثار، طرابلس، 1972.
- أحمد صدقي الدجاني، **الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن 19**، د.ن، القاهرة، 1988.
- إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- الأمير محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر**، شرح وتعليق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964.
- جان ريمون باشو، **رواية رحلة إلى بلاد مرمرة وبرقة وواحتي أوجلة ومرادة**، ت: مفتاح عبد الله المسوري، دار الجبل، بيروت، 1999.
- جون فرنسيس ليون، **مدخل إلى الصحراء**، ت: الهادي بولقمة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993.
- جيمس هاملتون، **جولات في شمال أفريقيا**، ت: المبروك محمد الصويعي، دار الفرجاني، طرابلس، د.ت.

- سعيد عبد الرحمن الحنديري، **"المحاولات الفرنسية لتحويل وجهة القوافل العائدة من السودان إلى الجزائر"**، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، السنة الثامنة عشر، العدد الأول، 1996.
- عبد الرحمن تشايجي، **الصراع التركي– الفرنسي في الصحراء الكبرى**، ت: علي أعزازي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1982.
- غيرهارد رولفس، **رحلة من طرابلس إلى الإسكندرية**، ت: عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2002.
- ليون روش، **اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام**، ت: محمد خير محمود البقاعي، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011.
- محمد الطيب الأشهب، **السنوسي الكبير**، د.ن، د.م، 1956.
- محمد فؤاد شكري، **السنوسية دين ودولة**، مركز الدراسات الليبية، أكسفورد،2005.
- يحيى بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، الجزء الأول، منشورات المتحف الوطني، الجزائر، 1996.
- ـــــ، **"طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر"**، مؤتمر تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984.

ثانياً: مراجع وأبحاث باللغة الأجنبية:

- E.E. Evans. Pritchard, **The Sanusi of Cyrenaica**, Clarendon Press, Oxford, 1949.
- Glauco Ciammaichella, **Libyens et Francais au Tchad (1897–1914): La Confrerie Senoussie et le Commerce Transsaharien**, Editions du Centre National de la Recherché Scientifique, Paris, 1987.
- Heinrich Barth, **Travels and Discoveries in North and Central Africa in the years 1849- 1855,** The Keystone Publishing Col, Philadelphia, 1890.

- Henri Duveyrier, **La Confrérie Musulmane de sidi Mohammed. ben Ali es-Senoussi ET son domaine Géographique,** Paris, 1884.

- Jacques Fremeaux, **Jean – Louis Triaud, la Legende Noire de la Sanusiyya: Une Confrerie Musulman Saharienne Sous le Regard Francais (1840 – 1930)**, (in): Annales. Histoire, Sciences Sociales, Vol. 52, No. 1, 1997.
- Jean –Louis Triaud, **La Legende Nooire de la Sanusiyya – une confrerie Musulmane Saharienne Sous le Regard Francais (1840–1930)**, Editions de la Maison des Sciences de l'homme, Paris, 1995.

- Michel. F. Le Gall, **Pashas – Bedouins and Notables: Ottoman Administration in Tripoli and Benghazi, 1881-1902**, PH.D. Princeton University, New Jersey, 1986.